ميلاد المخلِّص

ميلاد المخلِّص

(مت ١:١٨–٢٥)

١٨:١ «**أَمَّا وِلاَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ**».

«**يسوع المسيح**»:

ويتكوَّن هنا من الاسم الأصلي واللقب، فالاسم يسوع ولقبه المسيح أي الممسوح.

«**يسوع**»: ومعناها بالعبرية: ''الله يخلِّص''، حيث ''ياه'' باللغة العبرية اختصار يهوه ''الله''، و''شوع Shua'' معناها: ''يُخلِّص''، وقد فسَّرها الملاك: «وتدعو اسمه ''يسوع''. **لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم**» (مت ١:٢١). وهكذا أخذت الكنيسة معنى «يسوع» النهائي: مَنْ هو وما عمله؟ **مَنْ هو**؟ تضمرها كلمة ''لأنه''، فعلى مَنْ تعود كلمة: ''لأنه''؟ هل تعود على **يسوع** الاسم الكلِّي؟ أم على الله يهوه الذي هو مبتدأ الاسم ''ياه''؟ ويتضح هذا لو وضعناها معاً: ''ياه يخلِّص''.

واضح هنا أن القديس متى وضع هذا الاسم المتَّحد والمنصهر بهدوء **لندرك منه سر الاسم، فالشخص المولود هو ياه (يهوه) يخلِّص، أي الله يخلِّص**. وهذه هي الحقيقة اللاهوتية، لأن الله وحده هو الذي يخلِّص، أو أن الخلاص هو عمل الله، أو كما قالها المزمور بالروح: «للرب الخلاص» (مز ٣:٨)، «وهو ''يفدي'' إسرائيل من كل آثامه» (مز ١٣٠:٨). والمعنى اللاهوتي الكنسي لاسم يسوع يصبح: الله الفادي والمخلِّص تجسَّد، والتي اختصرها بولس الرسول إلى: «الله ظهر في الجسد» (١تي ٣:١٦). وقد تنبَّأ عنها إشعياء النبي بالقول: ''عمانوئيل''، اللقب الذي التقطه القديس متى واستند عليه بقوة ليُظهِر مَنْ هو ''يسوع'' بتعليقه على قول إشعياء، إذ فسَّره بقوله: «الذي تفسيره الله معنا» (مت ١:٢٣). وبهذا يكون القديس متى قد عبَّر عن إيمانه ومعرفته وعلاقته معاً بيسوع، أنه هو الله جاء متجسِّداً لكي يخلِّص.

فيسوع بحسب اسمه لا يمكن أن يُفهم أنه أداة يُخلِّص الله بها، بل هو هو الله جاء متجسِّداً يؤدِّي الخلاص بنفسه، حيث هنا يصبح الله يخلِّص بنفسه بالجسد، أي بابنه، بأن يموت الابن بالجسد، ويقوم الابن بالجسد؛ حيث الجسد في حقيقته هو البشرية في صورة ابنه التي جاء يفديها ويخلِّصها بنفسه، ويُجلسها عن يمينه، معطياً إياها صورة وميراث ومحبة **ابنه**.

فيسوع بالنهاية في الواقع اللاهوتي **هو الله ظهر في الجسد البشري ليضم البشرية المفدَّاة والمخلَّصة إلى نفسه**: «أنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو

٢٠:١٤)، «أنا والآب واحد» (يو ٣٠:١٠) = «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو ٢٣:١٧). فيسوع بمفهوم التوراة والإنجيل معاً هو: **الله المخلِّص في هيئة الإنسان الجديد**، جاء وأخذ لنفسه جسداً وصار هو البشرية الجديدة في مُجملها المطلق على صورته كما كانت في البدء، والقصد والغاية أن يتبنَّى الله البشرية جديدة مقدَّسة في نفسه لنفسه لتصير واحداً مع ابنه. فـ "**عمانوئيل**" هو نظرتنا نحن للمسيح، **لأن فيه صار الله معنا حقـــاً**؛ أمَّا من جهة نظرة الله من نحو المسيح فهو "**الإنسان معنا**"، لأن فيه صار الإنسان مع الله حقـــاً. وجاء إنجيل القديس يوحنا بأسلوبه الإلهامي الفائق الرؤيا والتحقيق والتدقيق ليصدِّق على رؤية القديس متى ويفردها إلى مفردات من نور وبهاء ومجد.

«وُجدَت حُبلى من الروح القدس»:

كَان الحَمْل في العهد القديم نقطة خطيرة في بدء حياة المولود، وكانت نقطة بداية لتدخُّل الله بصورة حاسمة. فنسمع أول ما نسمع عن الحَمْل بتدخُّل الله الفائق في حَمْل سارة بقوة إعجازية ولكن عن طريق إبراهيم رجلها. وكان هذا الحَمْل بداية العهد القديم، إذ وقف إبراهيم يعاتب الله قائلاً:

+ «إنك لم تعطني نسلاً وهوذا ابن بيتي (خادمي أليعازر الدمشقي) وارثٌ لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائِك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج (عن الخيمة) وقال: انظر إلى السماء (وكان ليلاً) وعُدَّ النجوم إن استطعت

أن تعُدَّها. وقال له: هكذا يكون نسلُك. **فآمن (إبراهيم) بالرب فحسبه له برًّا.**» (تك ١٥: ٣-٦)

+ «وقَال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة امرأتُك تلد لك ابناً، وتدعو اسمه إسحق، **وأُقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسلهِ من بعدهِ.**» (تك ١٧:١٨و١٩)

+ «وقال (إبراهيم) في قلبه: هل يولد لابن مئة سنةٍ؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟» (تك ١٧:١٧)

هذا المَثَل نقدِّمه للقارئ ليدرك كيف يتدخَّل الله في الحَبَل وفي الميلاد، وتدخُّله في أمر إبراهيم وسارة كان بمثابة خلق جديد من بعد موات، لأن سارة بنوع خاص فقدت القدرة على إنجاب النسل وكانت أصلاً عاقراً!! وهكذا نجد ميلاد إسحق بالنسبة للبشرية كان نوعاً من تجديد لنوع الإنسان بتدخُّل الله لإنجاب نسل على مستوى البركة، وصنع منه ''عهداً أبدياً'': «وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده».

كذلك نجد أن تقديس الله للإنسان يبدأ من الرَّحِم كما حدث لإرميا النبي: «فكانت كلمة الرب إليَّ قائلةً: قبلما صوَّرتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت مـــن الرحم قدَّستك. جعلتك نبيًّا للشعوب» (إر ١:٤و٥). هكذا يكشف الله عن قدراته الفذَّة لمعرفة الإنسان قبل أن يوجد وتقديسه وهو في الرحم، كما حدث أيضاً للقديس بولس الرسول: «لَمَّا سَرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته ...» (غل ١:١٥)

وبهذين المثَلَيْن نتقدَّم بكل خشوع وتقوى إلى حالة العذراء وميلاد

المسيح. فالتقديس حدث فعلاً في الرحم، ليس بمجرَّد مشيئة أو كلمة، بل بحلول روح الله القدوس، ليصنع من العذراء القديسة حبلاً إلهياً مقدَّساً ليخرج المولود والله أبوه! ونبوَّة إشعياء صارخة بهذا المعنى: «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (الله معنا)» (إش ٧:١٤)، ومعنى هذا بمنتهى البساطة: **إن الله "بروحه القدوس" صنع له وجوداً داخل الإنسان! هذا هو معنى «الله معنا»**. وبهذا صار ميلاد يسوع المسيح ابن الله أقوى افتقاد افتقد الله به البشرية، وكان حتماً وبالضرورة عهداً جديداً بين الله والإنسان، حيث يدخل الله كشريك حياة مع الإنسان بوجود حيّ فعَّال لا ينقطع!! هنا وبسبب دخول الروح القدس في عملية الحبل الإلهي والولادة، يتحتَّم أن ترتفع حادثة ميلاد ربنا يسوع المسيح إلى مستوى "**السرّ**" في المسيحية، على أن الروح الذي كان عاملاً مع المسيح في خلق العالم منذ البداية، والذي كان يرف على وجه المياه، حلّ على المسيح كحمامة ترفرف في الأُردن ليخلق بواسطته بشرية جديدة لله في نفسه:

+ «مخلوقين في المسيح يسوع.» (أف ٢:١٠)
+ «وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق.» (أف ٤:٢٤)
+ «صار آدم الإنسان الأول نفساً حيَّة، وآدم الأخير روحاً محيياً ... الإنسان الأول من الأرض ترابي. الإنسان الثاني الرب من السماء.» (١كو ١٥: ٤٥و٤٧)
+ «إذاً، إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة.» (٢كو ٥:١٧)

أي أنه حتى اليوم يتصوَّر المسيح فينا بالروح القدس ومخاض الولادة بالنعمة: «يا أولادي الذين أتمخَّض بكم أيضاً إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم» (غل ٤:١٩). هذا تصوير بديع للكيفية التي بها نُخلَق جديداً ونصير خليقة جديدة في المسيح يسوع بالروح القدس بمخاض أي آلام الولادة الثانية بالروح، التي نأخذ فيها صورة المسيح. وهكذا، وباختصار شديد، يكون بدخول الروح القدس أحشاء البتول لتكوين الحمْل الإلهي في البطن المقدَّس، يكون قد دخل الإنسان عصر خلقته الجديدة في المسيح يسوع وعلى صورة المسيح في البر وقداسة الحق بحسب الله لميراث ملكوت السموات إلى الأبد، في مقابل خلقته الأُولى من التراب التي تنتهي إلى التراب.

«**الروح القدس**»:

يُذكر الروح القدس في العهد القديم Ruah في صيغة المؤنَّث، والكلمة اليونانية Πνεῦμα اسم محايد لا مذكَّر ولا مؤنَّث فهو يضمر she, he, it، وفي العربية لا يُذكر إلاَّ مذكَّراً وهذا جيد لأن وجوده في الثالوث وجود مُتساوٍ في كل شيء مع الآب والابن، لذلك وجب التنبيه.

١:١٩ «**فَيُوسُفُ رَجُلُهَا إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا سِرًّا**».

ومع شديد احترامنا لبرِّ يوسف إلاَّ أننا نعاتبه، فأليصابات بمجرَّد أن سمعت سلام مريم ارتكض الجنين بابتهاج في بطنها، وصرخت قائلة: ''مِنْ أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليَّ''!! وأنت يا يوسف عِوَض الابتهاج بهذا

الكنز الذي أصبحت فوجدته في حقلك، واللؤلؤة الحسنة الكثيرة الثمن تدخل تحت سقفك؛ تجري الظنون في قلبك بأنها لا تليق أن تكون لك أو توجد في بيتك؟ أمر اقشعرت له الملائكة وأسرعت تُوَعِّي قبل أن يدنو منها بكلمة. فالمسيح منذ أن حُبل به في البطن صار تحت حراسة ملائكية مُشدَّدة.

١:٢٠ «**وَلَكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هذِهِ الأُمُور، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ**».

كلام الملاك في ظاهره توبيخ وتوعية، وفي باطنه تمجيد أيّما تمجيد. والكلام يعني أن بهذا الذي في بطن عذرائك المخطوبة لك، وقد صارت من خاصتك وصرت لها خاصة؛ قد نلت بالانتساب إليها أن تكون وريث مملكة داود أبيك، لتنقل الوراثة رسمياً إلى مَنْ أصبحتَ تمثِّله في سجلات اليهود والرومان. فكان كلام الملاك كمَنْ يوقظه من نوم الغفلة ليسلِّمه تاج العرش وديعة ليضعه على رأس المولود تحت اسمه!!

وانعكس الحال، فالأولاد يرثون كرامة ومجد أبيهم، وهذا وَرِثَ كرامة ومجد المولود في بيته!! «يا يوسف ابن داود»!! وتُحسَب لنا هذه الآية آية شهادة من السماء بأن المسيح مولود من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم. على أنه بحسب جدول أنساب القديس لوقا يظهر أن مريم العذراء القديسة هي أيضاً بنت داود. ونعلم من القديس بولس الرسول نسب

المسيح لداود دون أن يرجع إلى جداول الأنساب أو يؤكِّده عن أُمه أو خطيبها: «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد.» (رو ١:٣)

كذلك ما أورده القديس يوحنا في إنجيله لَمَّا أراد أن يتكلَّم عن تجسُّد المسيح بعد أن أوفى حقيقة سَبْق وجوده الأزلي ككلمة الله الذي كان في البدء وكان الله! يقول: «والكلمة صار جسداً» (يو ١:١٤). هنا بناءً على الآية الأُولى في إنجيله، يتكلَّم القديس يوحنا عن ''الله'': «وكان الكلمة الله» (يو ١:١) أنه صار جسداً، هذا يُحتِّم أن هذه الصيرورة في الجسد لله هي من عمل الله وليس من عمل إنسان بأي حال وعلى أي وجه.

وكلمة القديس يوحنا: «وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» (يو ١:١٤)، هي بعينها كلمة إشعياء النبي: ''ويُدعى اسمه عمانوئيل'' التي تُترجم: ''الله معنا''!! فالله معنا لا يكون ولا يمكن أن يكون إلاَّ بروحه القدوس!

والأمر الأكثر أهمية عندنا هو لماذا يتحتَّم أن يولد المسيح من عذراء ومن الروح القدس؟ ذلك لأن عملية الفداء تُحتِّم أن المولود يكون قدوساً بلا أدنى عيب أو خطية، حتى يستطيع أن يحمل خطايا البشرية كلها ويموت بها، دون أن تكون له خطية واحدة وإلاَّ يُحسب موته عن استحقاق له، وليس باستحقاق آخرين، كما يتطلبه معنى الفداء. فكل عملية الفداء تتوقف على أنه مات بالجسد، أي بالبشرية، حاملاً خطاياها ليصبح موته تكميلاً لعقوبة الله على آدم ونسله. ثم إن قيامته تتوقف بالدرجة الأُولى على لاهوته وبرِّه الشخصي وقداسته المطلقة التي جعلت

الموت عاطلاً لا يقدر أن يُمْسك به. إذن، فولادته من عذراء قديسة ومن الروح القدس هو مطلب لاهوتي يقوم عليه الفداء ولا يصح إلاَّ بمقتضاه.

والآن يتحتم علينا أن نمتد بعمل الروح القدس هكذا في العهد الجديد، فعلى مثال العذراء التي قدَّسها الله ليتصوَّر المسيح فيها ويولد منها، هكذا أصبح بمقتضى القول الإلهي إن الله صار معنا، أن يتصوَّر المسيح ويحيا في كل مَنْ يقدِّسه الله:

+ «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل ٢:٢٠)
+ «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تُظْهَر **حياة يسوع أيضاً في جسدنا**.» (٢كو ٤:١٠)
+ «إن كنا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه.» (٢تي ٢:١١)

كذلك يلزم أن نقف عند الاصطلاح: «الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس ἐκ πνεύματός ἐστιν ἁγίου». هنا الإشارة تبلغ قمتها الإلهية أن **الروح القدس هو صاحب المبادرة**، ولم يكن للعذراء إلاَّ الموافقة: «ليكن لي كقولك». لذلك تحتَّم في التقليد والطقس أن نبدأ في التلاوة بالروح القدس: ''وتجسَّد من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم''. وبالتالي في اللاهوت يلزم أن يُقال إن اللاهوت اتَّحد بالناسوت، فهو صاحب المبادرة وليس العكس.

١:٢١ «**فَسَتَلِدُ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ**».

«**يسوع**»:

يأتي الاسم مختصراً في العبرية: Jeshua وأصلها العبري: Jehoshua (انظر شرح ١٨:١)، ويعني: ''يهوه يخلِّص''. وفي الاسم المختصر Jeshua يأتي بصيغة الفعل، لذلك شرح الملاك معناه: «لأنه يُخلِّص شعبه من خطاياهم». ولاسم الخلاص يسوع أُضيف لقب المسيح أي الممسوح من الروح القدس كمختار الله، أو بمعنى المُفرز أو المكرَّس ليحمل خلاص الإنسان: «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأُنادي للمسبيين بالعِتق، وللمأسورين بالإطلاق ...» (إش ٦١:١)

ويُلاحِظ القارئ أن الله حين يُعيِّن الاسم، يعيِّن سبق معرفته بعمل صاحب الاسم. فالخلاص الذي أكمله المسيح كان مرئياً لدى الله ومنه أُعطي الاسم وصفته: «الرب من البطن **دعاني**، من أحشاء أمي ذكر **اسمي**.» (إش ٤٩:١)

«**يخلِّص شعبه من خطاياهم**»:

يخلِّص شعبه، لا من الرومان، ولا من قسوة الزمان، ولا من عبودية إنسان؛ بل يخلِّصهم من أنفسهم، من عيوبهم وخطاياهم وتعدياتهم وزناهم وفجورهم. وشعبه هنا هو كنيسته في شكلها الأول والأخير، كل مَنْ آمن وعاش على الرجاء؛ حيث الخلاص من الأعداء هنا هو الخلاص من أنفسهم، خلاص من خطيتهم وليس من الخطاة. هنا دعوة المسيح إلى نقد الذات، ودينونة النفس، ومحاكمة الضمير، وإصدار الحكم العادل ضد النفس وفجورها، قبل الدينونة التي لا ترحم وتُرسل إلى جهنم. هذا هو

سر قول المسيح: أنا لا أدين أحداً، أنا لم آتِ لأدين العالم بل لأُخلِّص العالم، لأجعل كل إنسان يدين نفسه حتى أستطيع أن أُبرِّئه أنا!! وهذا سر قول المسيح: «أحبوا أعداءكم» (مت ٥:٤٤)!

١:٢٢و٢٣ «**وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْناً، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ** (إيل = الله، عمانو = معنا) **الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اللهُ مَعَنَا**».

يلجأ القديس متى هنا إلى العهد القديم ليكشف عن سبق معرفة الله وتدبيره الذي ألهم به أنبياءه لكي ينطقوه ويسجِّلوه في أوانه، ليصبح شهادة أزلية من السماء بالواقع الذي نراه ونسمعه في الزمن لعلَّنا نؤمن ونصدِّق. وعلى القارئ أن يراجع القول: «لكي يتم ما قيل من الرب»، فالأنبياء لم ينطقوا إلاَّ بما وضع الله في فمهم. فالمرجع هنا ليس مجرَّد نبوَّة أو نبوَّات، بل صوت الله ومشيئته المعلَنة منذ الدهر. ولهذا لا يستغرب القارئ حينما يحذف القديس متى اسم النبي؟! فليس المهم هو مَنْ قال، بل مَنْ الذي أعطى القول. والقول قاله إشعياء عن الله مباشرة وكأن الله هو المتكلِّم: «ثم عاد الرب فكلَّم آحاز قائلاً: اطلب لنفسك آية من الرب إلهك. عمِّق طلبك أو رفِّعه إلى فوق، فقال آحاز (ونِعْم ما قال): لا أطلب ولا أُجرِّب الرب. فقال: اسمعوا **يا بيت داود** ... يعطيكم السيد **نفسه** آية: ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش ٧: ١٠-١٤). الآية هنا آيتان: الأُولى: العذراء تحبل وتلد، والثانية: أن يصير الله معنا. هنا كلام الرب موجَّه لبيت داود،

فالعذراء عذراء بيت داود حتماً!! وكون العذراء تحبل وتلد هي آية السيد الرب نفسه داخلة في مشورته وتدبيره وتنفيذه. بمعنى أن كل ما أحاط بحبل العذراء وولادتها كان تحت تدبير الله المتقن. فإن سمعنا بملاك يبشِّر ويوعِّي أو يرشد، فهذا كله داخل في صميم تلك الآية الموجَّهة إلى بيت داود.

أمَّا ملابسات آية إشعياء، فهي أن آحاز ملك يهوذا وبيت داود هدَّده ملك إسرائيل فقح بن رمليا بالاتفاق مع ملك سوريا رصِين لكي يخرِّبوا بيت داود ويحطِّموا سبط يهوذا وأُورشليم (إش ٦:٧). وهكذا كان الله بالمرصاد للذين أضمروا الشر لبيت داود (مسيح الرب)، وقد أعطى الله وعوداً أنه يثبِّت مملكته إلى الأبد. فماذا يقول الله لآحاز الملك الخائف المرتعب والذي لم يكن يعلم أنه مجرَّد أمين على تنفيذ وعود الله لداود وبيته. هكذا جاءت الآية التي تكشف عن خطة الله الأزلية كيف سيثبِّت مملكة داود إلى الأبد رغم أنف الحاقدين والمضمرين الشر، بمجيء ابن داود ليملك ويثبِّت مُلْكه إلى الأبد. وجعل الله حَبَل العذراء آية لآحاز ولجيل الأجيال، والذي يسبق الله ويقوله على فم الأنبياء هو بحكم النافذ تاريخياً. وهكذا صار هذا التصوير الماسيَّاني واقعاً بحذافيره في بيت داود وآيةً لبيت داود. وقد أبدع القديس متى، إذ وضع آية إشعياء ليس فقط في موضعها بالضبط، بل وفي فاتحة قصة المسيَّا! لتسود وتمكِّن من كل ما جاء عن المسيَّا. علماً بأن كافة النبوَّات إنما تحوم حول المسيَّا من جهة مجيئه وتجسُّده وحياته وفدائه.

والأمر الذي يلح علينا توضيحه هو أن الله في إشعياء هو المتكلِّم بنفسه، وهو الذي يقول بالنهاية: «**وتدعو اسمه عمانوئيل**»، وكأنها منتهى مسرَّة الله أن يكون معنا!! واسم عمانوئيل بحد ذاته يتفق جميع الآباء (هيلاري، وذهبي الفم، وثيوذوريت ولكتانتيوس)[1] على اعتباره توضيحاً للطبيعة الإلهية في المسيح.

وهنا نرى أن بقبول العذراء الروح القدس، يولد لها ولد على خلاف الطبيعة بدون رجل، وكل ما قدَّمته العذراء هو كامل مشيئتها لله: «ليكن لي كقولك»؛ وبهذه المشيئة تكون قد افتتحت العذراء أمام البشرية الولادة من الروح القدس بصورة سريَّة، التي ألمح إليها المسيح في قوله لنيقوديموس: «إن كان أحد **لا يولد من الماء والروح** لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو ٣:٥)، ثم عاد المسيح وأوضح له الفارق بين الولادة من الجسد والولادة من الروح بقوله: «المولود من الجسد جسد هو **والمولود من الروح هو روح**» (يو ٣:٦). وإلى هنا يكون المسيح قد كشف إلى حدٍّ ما نوع ولادته، ولكن لم يشرح المسيح الولادة الروحانية من الروح القدس كأنها أمر خاص تخص إنساناً ولا تخص إنساناً آخر، بل أعطاها حقيقة الحتمية حينما قال: «**ينبغي** must **أن تولدوا من فوق**» (يو ٣:٧). وبهذا يكون المسيح قد ربط ميلاده من الروح القدس بالميلاد الثاني الروحي للإنسان ووضع له الوسيلة والطقس: ''الماء والروح''. وهكذا أصبح سر المعمودية الذي أسَّسه المسيح بنفسه للكنيسة يستمد أصوله وسريَّته من ميلاده من الروح

(١) H.A.W. Meyer, *Critical and Exegetical Handbook to the Gospel of Matthew*, p. 53.

ومن العذراء مريم؛ حيث ''الماء'' و''فوق'' هو بمثابة بطن العذراء القديسة، وبسر الماء والروح القدس والدعاء بالاسم، نولد من فوق من رحم السماء!

فإذا أردنا أن نفحص سر كلمة عمانوئيل ''الله معنا''، نرى أن القديس بولس يستخدمها بوعي روحي عميق دون أن يركِّز عليها، وفي معانٍ متعدِّدة: «فأحيا لا أنا بل **المسيح يحيا فيَّ**» (غل ٢:٢٠)، حيث حياة المسيح عند القديس بولس تعبِّر تماماً عن الله معنا. وأكثر من ذلك في قوله: «يا أولادي الذين **أتمخَّض بكم أيضاً إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم**» (غل ٤:١٩)، فهنا المخاض للولادة والمسيح يتصوَّر فينا، هو تعبير عن الله معنا. كذلك: «وأمَّا من التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو ٦:١٧)، فهذا أيضاً يعبِّر عن اتحادنا بالمسيح، وبالتالي يعبِّر عن الله معنا.

من هذا نفهم أن سِرَّ ''عمانوئيل'' الله معنا الذي استلمه القديس متى بالروح من نبوَّة إشعياء عن ميلاد المسيح بالروح، دخل في صميم مسيحيتنا كسرٍّ حياتنا مع الله وحياة الله معنا.

على أننا لاحظنا في قراءات النبوَّة والإنجيل عن عمانوئيل وتسمية المسيح رؤيةً جديدةً، فنبوَّة إشعياء عن النسخة العبرانية تجيء: «ها العذراء تحبل وتلد ابناً **وتدعو** اسمه عمانوئيل» (إش ٧:١٤)، وتجيء هي نفسها في النسخة السبعينية اليونانية بصفة أمر للمخاطب المفرد: «**وتدعو** (أنت) καλέσεις اسمه عمانوئيل ». وهو نفس الأمر الذي أعطاه الملاك ليوسف النجار: «فستلد ابناً، وتدعو (أنت) καλέσεις

اسمه يسوع» (مت ١:٢١). ولكن القديس متى بإلهام من الروح القدس يقولها مخاطباً الجمع الغائب الذي هو الكنيسة: «**ويدعون** καλέσουσιν اسمه عمانـــــوئيل، الذي تفسيره الله معنا» (مت ١:٢٣). وأضاف هنا القديس متى شـــــرحاً وتعريفاً لمعنى عمانوئيل التي هي أصلاً إيل – عمانو (معنا)، حيث ''إيل'' هو ''الله'' كما دعاه المسيح على الصليب: «إيلي إيلي ... أي إلهي إلهي ...» (مت ٢٧:٤٦). وهكذا تأخذ كلمة ''عمانوئيل'' عند القديس متى، بإلهام الروح القدس، وضع "**الله**" عن تحقيق، وعليه يصبح ''يسوع'' المولود صاحب اللقب اللاهوتي: الله المتجسِّد!! فهذا هو نفس الذي رآه بولس الرسول: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى: **الله ظهر في الجسد**» (١تي ٣:١٦). وكما عرَّفها القديس يوحنا: «في البدء كان الكلمة ... وكان الكلمة الله ... والكلمة صار جسداً.» (يو ١:١و١٤)

ولكن هنا تحقيق آخر غاية في الخطورة والأهمية بآن واحد، وهو هل يؤخذ معنى القول ''عمانوئيل الله معنا'' ليعني أن الله حلَّ في المسيح، وهكذا صار الله معنا بالمسيح؟ وهذا فيه خطورة لاهوتية! أم أن المعنى يلتزم بالنص أن الله تجسَّد وصار معنا وهو نفسه شخص المسيح، وهذا يؤدِّي في الحال إلى أن ''الله هو المسيح'' أو أن ''المسيح هو الله معنا''.

وطبعاً يكون المفهوم الثاني لعمانوئيل الله معنا هو الأصح وذلك من واقع النص، ولو أن هناك تعبيرات لاهوتية توضِّح أن الله كان في المسيح أيضاً مثل:

+ «أي أن الله كان في المسيح مُصالِحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم.» (٢كو ٥:١٩)
+ «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ؟ الكلام الذي أُكلِّمكم به لست أتكلَّم به من نفسي، لكن الآب الحالَّ فيَّ هو يعمل الأعمال. صدِّقوني أني في الآب والآب فيَّ.» (يو ١٤: ١٠و١١)

وقصد المسيح هنا هو وحدة الذات والأعمال بين الآب والابن. وهذا يُزيد من قوة وامتداد لاهوت الابن. وهنا يتصحَّح الوضع بأن الحلول متبادَل، الآب في الابن والابـــــن في الآب، ليعبِّر تعبيراً قوياً عن: ''الوحدة الكاملة المطلقة''.

سر الثالوث كان أول استعلانه من كلمة "عمانوئيل":

كون الكنيسة تدخل بعد خبر ميلاد المسيح مباشرة في مفهوم أن ''الله معنا''، صار هذا يعني أن المسيح هو الله. ولكن في التوراة قد ترسَّخ في ذهن البشرية أن الله الواحد الأحد هو الساكن العُلا في نور لا يُدنى منه، وها هو الله معنا هنا على الأرض لَمَّا تجسَّد من الروح القدس (ومن العذراء القديسة مريم). وهكذا بدأت الكنيسة تحس وتعي عملياً الأوجه الذاتية الثلاثة لله الواحد في اللاهوت، حيث الله ذات واحدة في أوجه أو أقانيم ذاتية ثلاثة.

ولكن الله المتجسِّد المعبَّر عنه بعمانوئيل الله معنا المحسوب أنه الأقنوم الذاتي لله المتجسِّد ثَبَتَ باعتراف الله في أثناء العماد (في الأُردن) أنه ابنه الوحيد المحبوب، كما اعترف المسيح في الإنجيل كله أنه ابن الله وأن الله أبوه. إذن، تحدَّدت الأقانيم الذاتية أو الأوجه الذاتية لله بالآب

والابن والروح القدس؛ حيث الوجه أو الأقنوم الذاتي المتجسِّد لله الذي هو الابن الوحيد المحبوب أصبح بالتجسُّد ''الله معنا''. أمَّا الآب وهو الوجه أو الأقنوم الذاتي لله الساكن في الأعالي و«الذي لم يره أحد قط»، فهو الله العلي الساكن في نور لا يُدنى منه. أمَّا الروح القدس فهو الوجه الذاتي لله الكائن في الآب وفي الابن، فهو روح الله، وهو الذي أرسله الآب بتوسُّط الابن ليمكث معنا ويكون فينا (يو ١٤:١٧). فالآب **علينا**: «أبانا الذي في السموات»، والابن **معنا**: «عمانوئيل»، والروح القدس **فينا**: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم.» (غل ٤:٦)

ابن الله وابن الإنسان:

لو جمعنا كل ما تحصَّل لدينا من قول الملاك وقول النبوَّة عند القديس متى عن "**يسوع**" وهو "**عمانوئيل الله معنا**"، وعند القديس لوقا: «القدوس المولود منكِ **يُدعى ابن الله**» (لو ١:٣٥)، يصبح عندنا في الحال تحقيق لاهوتي واضح وأكيد أن عمانوئيل نفسه الله المتجسِّد هو ابن الله.

على أن الأقنوم الذاتي المتجسِّد لله، لَمَّا أخذ جسداً بشرياً بالروح القدس ومن مريم العذراء القديسة، لم يكن ممكناً أن يُحسب ابناً لإنسان معيَّن، بل استُعلن أنه وهو الابن الوحيد المحبوب للآب صار ابناً للإنسان، بمعنى أنه يجمع البشرية كلها في شخصه دون الخطية، فكما هو حاصل على طبيعة الله بالمعنى المطلق هو حاصل أيضاً على طبيعة الإنسان بالمعنى المطلق **والمقدَّس**. والمعروف أن المسيح أعطى لنفسه هذا الاسم: «ابن الإنسان»

ليخفي وراءه حقيقة ومجد بنوَّته لله حينما يتكلَّم عن نفسه. وقد أكَّد المسيح أن كل ما لله الآب هو له، وكما تأكَّدنا نحن أيضاً أن كل ما للإنسان كان له أيضاً ما عدا الخطية وحدها. لذلك قلنا إن **ابن الله صار ابن بشر** دون أن يفقد ما لله جملة وتفصيلاً، الذي عبَّرت عنه الكنيسة القبطية أنه صاحب الطبيعة التي تحمل اللاهوت والناسوت معاً بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. كما أنه لا يُفضَّل أن يُقال إنه إنسان كامل وإله كامل، ولكن الأصح هو أن يُقال: إنه يحمل البشرية بكاملها، فله كل ما للبشر ما عدا الخطية وحدها، واللاهوتية بكمالها، بنوَّة دون أبوَّة، في شخص واحد يعبِّر عن الله والإنسان معاً، تعبيراً كاملاً كليًّا مطلقاً لا يماثله في ذلك أحد. فهو وحده الذي ينفرد بالقول: "**أنا الله**" **ἐγώ εἰμι**، وبآن واحد: "**أنا الإنسان**".

أزلية الابن المتجسِّد:

وهنا يأتي السؤال الأخير وهو خطير: هل يسوع ابن الله المتجسِّد بدأ كيانه ووجوده عندما حُبل به في البطن من الروح القدس وَوُلِد؟ هنا الجواب سريعاً: حاشا!

هنا انبرت الكنيسة المؤيَّدة بالروح القدس في آبائها وعلمائها القديسين تردّ منذ بدايتها أنه ''مولود غير مخلوق''، «لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة (الكلام هنا عن ملكيصادق) بل هو مشبَّه بابن الله» (عب ٣:٧)، أي كان كائناً قبل أن يولد: «في البدء كان الكلمة» (يو ١:١). وفي الحقيقة بعد أن أكمل القديس متى إنجيله ودفعه إلى خزانة الكنيسة، ابتدأ الروح القدس يعمل بقوة بواسطة الرسل ليوفِّي هذه الحقيقة رسوخها في القلب

والفكر، وعلى سبيل المثال يقول بولس الرسول:

+ «فالله **إذ أرسل ابنه** في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد.» (رو ٨:٣)
+ «ولكن لَمَّا **جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه** مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس.» (غل ٤:٤)

وفي ملء الزمان استُعلن لنا متجسِّداً:

+ «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبتهِ، الذي لنا فيه الفداءُ بدَمِهِ غفرانُ الخطايا. الذي هو صورة الله غير المنظور، بكرُ كلِّ خليقةٍ. فإنه فيه خُلِقَ الكلُّ: ما في السموات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواءٌ كان عروشاً أم سياداتٍ أم رياساتٍ أم سلاطين. الكل به (بالابن) وله (للابن) قد خُلق. **الذي هو قبل كل شيء**، وفيه يقوم الكل.» (كو ١: ١٣-١٧)
+ «مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكلِّ بركةٍ روحية في السماويات في المسيح، **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم**.» (أف ١: ٣و٤)

كما أمدَّ الروح القدس القديس يوحنا بالمِثل لينطق بالروح بحكمة بالغة القدر عمَّنْ هو المسيح وكيف تجسَّد هكذا:

+ «**في البدء كان الكلمةُ**، والكلمةُ كان عند الله، **وكان الكلمةُ الله. هذا كان في البدء عند الله**... والكلمةُ صَار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجدَهُ، مجداً كما لوحيدٍ من الآبِ، مملوءاً نعمة

وحقًّا.» (يو ١: ١و٢و١٤)

+ «الله لم يَرَه أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضنِ الآب هو خبَّرَ.» (يو ١:١٨)

تقديم العبادة اللائقة بالله للمسيح:

لقد وَعَت الكنيسة لاهوت المسيح وعياً عميقاً تأصَّل في كيانها الفكري والقلبي والحياتي، فأصبحت كل صلاة وكل خدمة وكل عبادة تُفتتح باسم الآب والابن والروح القدس، وبعدها تُقدَّم العبادة والصلوات لله الواحد، وصورة المسيح باعتباره الله المتجسِّد تملأ الذهن والوعي والوجدان بيقين وإيمان أنه هو الذي يمثِّلنا لدى الآب والروح القدس:

+ «أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى.» (يو ١٠:٩)

+ «أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (يو ١٠:١١)

+ «خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي.» (يو ١٠: ٢٧و٢٨)

+ «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي.» (يو ١٤:٦)

١:٢٤و٢٥ «**فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ يُوسُفُ مِنَ النَّوْمِ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ، وَأَخَذَ امْرَأَتَهُ. وَلَمْ يَعْرِفْهَا حَتَّى وَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ. وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ**».

الذي يشرح معنى «أخذ امرأته» قول الملاك في السابق: «لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك». فهنا يوسف، كما تقول الآية، فعل كما أمره الملاك. أمَّا قول القديس متى إن يوسف لم يعرف امرأته حتى ولدت ابنها البكر، فهذا بحد ذاته إحساس منه أنه أخذ العذراء في بيته بأمر الملاك لكي يرعاها حتى تلد مخلِّصاً لشعب إسرائيل، فهذا ليس بعد مسألة زواج ومتعة وجنس، فأمامه عذراء قديسة حُبل فيها من الروح القدس لتلد قدُّوساً مخلِّصاً لشعبه، كيف يتَّخذها زوجة؟ وقد صارت مخصَّصة للروح القدس والله الآب.

ويؤكِّد ذلك العالِم أولزهاوزن:

[إنه أمر واضح أن يوسف بعد هذه الاختبارات يكون عنده السبب الكافي ليؤمن أن زواجه من العذراء (وهو ليس زوجاً) إنما يُقصد به غرض آخر غير خلفة الأولاد.][٢]

أمَّا نحن فنطرح على الكنيسة كلها هذه الحقيقة، وهي أن الحقيقة المطروحة أمامنا فوق دوام بتولية العذراء القديسة مريم هي دوام حلول الروح القدس ودوام قوة العلي التي ظلَّلتها. فهذه المنح والمواهب والقدرات لم تُمنح لأم حتى تلد ثم تُنزع منها، بل مُنحت لأم لتلد وترعى مولودها القدوس ابن الله ولها من القدرة الإلهية الفائقة ما يمكن أن تمنحه لابنها، سواء في الرضاعة أو الطفولة العاجزة أو حتى الصبوة وربما الشباب، بل ربما حتى الصليب. وليس لأن كل أدوار وأعمال العذراء في تربية ابنها قد أُسقطت من رواية الإنجيل، فيجعلنا هذا أن

(٢) Olshausen cited by H.A.W. Meyer, *op. cit.*, p. 54.

ننكر هذه الأدوار والأعمال. فكما أن المسيح ظلَّ ابنها الوحيد حتى إلى الصليب، ظلَّت هي بالتالي أُمه. فلمَّا سلَّمها للقديس يوحنا قائلاً: «هوذا أُمك» (يو ١٩:٢٧)، كانت إشارة بليغة أن رعاية المسيح لأُمه انتقلت إلى أأمن تلميذ يحبُّه. ثم قوله لأُمه: «يا امرأة **هوذا ابنك**» (يو ١٩:٢٦)، معناها في غاية البلاغة، أن كل المحبة وكل العاطفة وكل العلاقات التي تربط الأُم بولدها انتقلت إلى يوحنا، فلا تحرم من مشاعرها ومواهبها كأم قديسة، إذ تظل تحتمي بيوحنا لصيانة مشاعرها كأم. لذلك نرى أن دوام بتولية العذراء مربوط ربطاً قوياً بإحكام مع دوام علاقتها السرية بالمسيح، فهو لم يكن ابناً وحسب بل: ''يا ابني وإلهي''!! ولم تكن مجرَّد أُم لأولاد، حاشا، بل أُمًّا لابن الله وكفى!!

وسؤال أخير: إن كان القديس يوحنا بسبب حبه للمسيح وحب المسيح له لم يكسر بتوليته بل كرَّس بتوليته لحب المسيح والإنجيل، فهل العذراء القديسة مريم التي كرَّست بتوليتها على يد ملائكة وروح الله القدوس تكسر بتوليتها لتلد بنين وبنات؟؟

ويقيناً فإن أية محاولة للانحراف بدوام بتولية العذراء ينهي على مفهوم ولادة المسيح الفائقة للطبيعة ورسالته الفدائية وعمل الخلاص الذي عُمل. فقصة المسيح منذ بدايتها حتى نهايتها تقوم على قداسته المطلقة وعلى قداسة كل مَنْ اشترك في عمل المسيح: «طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما.» (لو ١١:٢٧)